مَقَاصِدُ السُّوَرِ

وَأَثَرُ ذَلِكَ فِي فَهْمِ التَّفْسِيرِ

لمعالي الشّيخ

صالح بن عبد العزيز بن محمّد آل الشّيخ

وزير الشؤون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد

الريـاض

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقَـدّمة

الحمد لله الذي نَزَّلَ الفرقانَ على عبده ليكونَ للعالمين نذيراً.

والحمدُ لله الذي أنـزلَ على عبده الكتابَ ولـم يجعلْ له عِوجاً، حمداً كثيراً دائماً ما تتابعَ الليلُ والنهارُ كلما حَمِدَ اللهَ -جل وعلا- الحامِدون، وكلّما غَفَلَ عن حمده -سبحانه- الغافلون.

وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسَلَّمَ تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

أما بعد:

فأسألُ ربي -جل جلاله- وهو المجيبُ لمن سأل،

والمعطي لِمَنْ أقبلَ عليه أن يجعلني وإيَّاكم ممن باركَ قولَهم وعملَهم، وألاَّ يكلَنا إلى أنفسنا طرفةَ عين، وأن يقيَنا الفتنَ ما ظهرَ منها وما بَطَنَ، وأن يلزمنا كلمة التقوى في الحياة والممات إنه -سبحانه- جواد كريم.

كما أسألُ ربِّي -جلّ وعلا- أن ينفعني وإيَّاكم بما نسمعُ أو نقرأ من العلم، وأن يجعلَه حجةً لنا لا حجةً علينا، وأن يُقيمنا على دينه ما أبقانا.

وموضوعُنا أثرٌ من آثار تدبُّر القرآن عند أهل العلم، لأن الموضوعَ الذي سنتناوله يبحثُ في علم مقاصد سُوَر القرآن، ويبيِّن أثرَ هذا العلم بالمقاصد في فهم التفسير. فلنبدأ بالمقصود.

* * *

محبة العلم مِنّة من الله -تعالى- على خاصَّة عباده:

ثم إن من أنواع البركة التي يُفيضها الله -جل وعلا- على خاصَّة عباده أن يَمُنَّ عليهم بمحبة العلم، ومحبة تدارسه، والإقبالِ على ذلك.

إن العلمَ هو البصيرةُ، والله -جل وعلا- قال في آخر سورة يوسف[1] التي هي سورة الدعوة: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ومن اتَّبع النبيَّ ﷺ هُمُ الرجالُ والنساءُ من المؤمنين والمؤمناتِ.

والبصيرةُ المطلوبةُ في هذا الصدد هي إدراكُ القلب والعقلِ لصوابِ المسائلِ، كما تُدْرِكُ العينُ والبصرُ الأشياءَ.

---

(١) (يوسف: ١٠٨).

والبصيرةُ حينئذ لابدَّ لها من العلم والحكمة، والبصيرةُ هذه هي العلمُ النافعُ فلابدَّ أن يكونَ معتنًى فيه بما جاء في الكتابِ والسنةِ، وما عليه أهلُ العلم.

* * *

حقيقة العلم بكتاب الله -تعالى- وتدبّره:

وحقيقةُ العلمِ هو العلمُ بكتاب الله -جل وعلا-، وبسنة رسوله ﷺ، إذ لا يوجد أعلى في الكلام ولا أعظمُ قدراً من كلام ربنا -جل جلاله-، ولا أجلُّ ولا أرفعُ بعده من كلام نبينا ﷺ، فالموفَّق والمبارَك مَنْ عَلِم وعَمِلَ واجتهدَ في ذلك حتى يصيب منه ما كتبَ الله له، واعْملوا فكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلِقَ له، ولهذا وصفَ الله -جل وعلا- كتابَه بأنه مبارَك، وجعل من أصناف بركته التي أنزلها -سبحانه وتعالى- أن أنزل هذا الفرقانَ كما قال -سبحانه-: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾(١)، وكما قال -سبحانه وتعالى-: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾(٢)،

---

(١) (الفرقان: ١).

(٢) (ص: ٢٩).

وقال أيضاً جل جلاله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾[(١)]، ونحو ذلك من الآيات التي فيها وصفُ القرآنِ بأنه مبارَك، يعني كثير الخير لِمَنْ أقبل عليه، ففيه شفاءُ الصدور، وفيه شفاءُ القلوب، وفيه هدايةٌ، وفيه التوفيقُ لمن أراد الله -جل وعلا- أن يوفِّقَه.

وفي الآيات التي ذكرناها وَصَفَ الله -جل وعلا- كتابَه بأنه مبارَك، وأنه أنزله لأمرَيْنِ، فقال سبحانه في سورة «ص»: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[(٢)]، واللام هنا هي لام كَيْ، يعني أنَّ العلَّة من إنزال القرآن وجعله مبارَكاً أن يتدبرَ العبادُ هذا القرآنَ، وأن يتدبروا آياتِه، لكي يتذكَّر أولو الألبابِ، وهذا فيه عِظَمُ

---

(١) (الأنعام: ٩٢).

(٢) (ص: ٢٩).

شأن تدبُّر القرآن، وعِظَمُ شأنِ التذكُّر حين التلاوة، وهذا إنما يكون بالتدبر، فلا تذكُّرَ إلا بتدبر القرآن، ولكن خصَّ اللهُ -جل وعلا- في التذكّر أولي الألباب، فقال: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1]، وفي الحقيقةِ أنَّ الذي يَتذكّر بعد التدبُّر، ويُقْبِلُ على القرآن هو العاقلُ، وهو ذو اللبِّ الذي بلغَ الغايةَ في ذلك.

وقد سُئل أحدُ سادات التابعينَ في الكوفة -أظنه إبراهيم النخعي- فقيل له: مَنْ أعقَلُ الناس؟ فقال: أعقلُ الناس فلانٌ الزاهدُ، فذهبوا لينظروا من عقله، ولينظروا من أمره، فما وجدوه إلَّا مقبلاً على القرآنِ، وعلى أمرِ آخرتِه، فعُلِمَ أنَّ قصد إبراهيم أنَّ أعقلَ الناس هو مَنْ أقبلَ على

(١) (ص: ٢٩).

أشـرفِ الـكـلام، وأقبـلَ على أشـرفِ مقصودٍ، وهـو الدار الآخــرة(١).

وهنا أمر لابدّ من التنبيه عليه، وهو أن الكتاب والسنة فيهما محكَمٌ ومتشابِهٌ، وكذلك كلامُ الصحابة وأفعالُهم، وكلامُ أهل العلم فيه مُحْكَمٌ ومتشابه، ولذلك تَميَّز الراسخون في العلم الذين أدركوا العلم بتمييز المُحْكَم من المتشابه، فأرْجَعُوا المتشابِهَ إلى المُحْكَم، وإلاَّ فإنه يمكن أن يتناولَ العلمَ كلُّ أحدٍ لكنَّ اللهَ -جل وعلا- ابتلى الناسَ بوجود المحكَم والمتشابِه حتى يظهر معنًى لوجود أهلِ العلم وأهلِ

(١) وما أجملَ قولَ القائل!

نِـعْمَ السميرُ كتــابُ اللهِ إنَّ لـه ... حلاوةً هي أحلَى من جَنى الضَرَبِ
به فنونُ المعاني قـد جُمِعْنَ فما ... تَفْتَرُّ من عجبٍ إلا إلـــى عَجَـبِ
أمـرٌ ونهيٌ وأمثـــالٌ وموعظةٌ ... وحكمةٌ أُودِعَتْ فـي أفصح الكُتُبِ
لطــائفُ يجتليها كلُّ ذي بَصَـرٍ ... وروضــةٌ يجتنيها كـــلُّ ذي أدبِ

الرسوخ، وألاَّ يتناولَ القرآنَ كلُّ أحدٍ، ولذلك ضلَّ مَنْ ضلَّ من الناس في الزمن الأوَّل، كما هو في الِفرَقِ الضالَّة، ومَنْ ضلَّ في السلوك والعبادة، ونحو ذلك من جهة أنهم لم يفرِّقوا بين المُحْكَم والمُتشابه(١)، وجعلوا الباب باباً واحداً، فجعلوا المتشابِهَ حجةً، كما جعلوا المُحْكَمَ حجةً، فاختلط عليهم الأمرُ.

* * *

(١) انظر «الكلام على المحكَم والمتشابه» في «مجموع الفتاوى» (١٣: ٢٧٢ - ٢٨٠).

تدبُّر القرآن أوّلاً ثم التفسير ثانياً:

قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(١)، فحضَّ اللهُ -جل وعلا- في هذه الآية على تدبُّر القرآن.

ومعلوم أن التفسيرَ إنَّما هو بتدبر القرآن، فالذي يعلم التفسيرَ لا شكَّ أنه قد تدبَّر قبلَ ذلك فعلمَ إذا كان عنده أهليةٌ بالعلوم التي ينبغي تَوَفُّرُهَا في المفسِّر، والناس بعد ذلك نقلتْ أو يتلقون ما قاله المفسرون، فلما حضَّ اللهُ -جل وعلا- على تدبُّر القرآن وجبَ حينئذ أن يُقْبِلَ العبادُ عامّة وأن يُقْبِلَ العلماءُ خاصَّة على هذا القرآن ليُخرجوا كنوزَه، لأن القرآن حجةُ اللهِ الباقيةُ إلى قيام الساعة، ويُخرج منه بقدر العلوم وبقدر ما فَتَحَ الله على عبده من الفهوم

(١) (القصص: ٨٣).

ومن العلم ما هو تفصيلٌ وبيانٌ لبعض كلمات المتقدِّمين من الصحابة والتابعين مما قد لا يُدْرِكُها كلُّ أحد، وهذه الجملةُ يأتي تفصيلها إن شاء الله تعالى.

* * *

(١) (الفرقان: ٥٢).

العلوم التي يحتاج إليها المفسِّر:

علمُ التفسير من العلوم المهمَّة؛ لأن القرآنَ هو أعظمُ ما يُقبِل عليه الناسُ، فإذا علمتَ القرآنَ علمتَ الشريعة، ولهذا قال طائفةٌ من العلماء: المفسِّرُ يحتاج إلى علومٍ كثيرة، منها:

العلم الأول: علمُ اللغة، لأن القرآن أُنزل بلسان عربيٍّ مبين: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[1].

واللغة أقسامٌ منها علمُ النحو مفرداتٍ وجُمَلاً، ومنها علمُ التصريف، ومنها علمُ مفردات الألفاظ، ومنها البلاغةُ بأقسامها الثلاثة[2]، ومنها الاشتقاقُ، إلى آخرِ علوم اللغة.

---

(١) (الزخرف: ١ - ٤).

(٢) أي: علم المعاني والبيان والبديع، ويعرف بالأول خواصُّ تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعنى. وبالثاني خواصها من حيث اختلافُها. وبالثالث وجوهُ تحسين الكلام.

العلم الثاني: علمُ التوحيدِ الذي هو الأساسُ، فالقرآنُ كلُّه في توحيد الله -جل وعلا- من أوّله إلى آخره.

العلم الثالث: العلمُ بالسنة، لأن السنةَ مفسِّرةٌ للقرآن ومبينةٌ له.

العلم الرابع: العلمُ بالفقه، وأحكامِ الحلالِ والحرامِ، والعباداتِ والمعاملاتِ؛ لأن هذا القرآن فيه آياتٌ كثيرة في هذا الباب.

العلم الخامس: علمُ الجزاءِ يومَ القيامة وأحوالِ الناس فيه، وهذا في القرآن منه الشيءُ الكثير.

العلم السادس: علمُ أصول الفِقْهِ، والعلومُ المساعدةُ لعلم أصول الفقه، لأن بها فَهْم كثيرٍ من آيات الله البيِّنات.

إذا تبيَّن لك هذا فإنَّ المفسِّرَ الذي تكونتْ عنده حصيلةٌ راسخةٌ من هذه العلوم يمكنُه أن يتدبَّر القرآنَ، وأن يكون

مستخرِجاً لما فيه من الدِّلالات والعِبَر، وموضوعاتِ السُّوَرِ، ومقاصد السُّوَرِ. كما سيأتي بيانُه مقتفياً في ذلك بما فسَّر به الصحابةُ والتابعون كتابَ الله، -جل وعلا-.

* * *

سُوَر القرآن لا تخرج عن أربعة أقسام:

القسم الأول: ذلك أنَّ القرآنَ إمَّا أن يكـــونَ ما فيه خبراً عن الله -جل وعلا- وعن صفاته -سبحانه وتعالى- وعمَّا يستحقه -جل وعلا- من توحيدِه في العبادة، والبراءةِ من الشِّرك وأهلِه ونحو ذلك.فهذا واضحٌ في أنه في توحيد الله -جل وعلا-.

القسم الثاني: أن يكونَ ما فيه خبراً عن أنبياء الله -جل وعلا- وعن رسلِه وعن قِصَصِهم، وهذا خبرٌ عن أهل التوحيد، وما جعلَ الله -جل وعلا- لهم في الدنيا من الأحوال والعاقبة ﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾[1].

القسم الثالث: أن يكون أمراً لأداء الفرائضِ، ونهياً عن ارتكاب المحرَّمات، وهذا في حقوقِ التوحيد ومكملاتِه؛

(١) (فصلت: ١٨).

لأَنَّ مَنْ وَحَّدَ الله -جل وعلا- أطاعَ الله في أمره، وانتهى عن نهيه، وتخلَّص من داء شهوته وهواه.

القسم الرابع: خبرٌ عن الأمور الغيبية وما يحصُل بعد الممات من النعيم والعذاب، ومن الجنة والنَّار، ومن الحُبور والسُّرور لِطائفةٍ، ومن العذاب والنكال لِطائفةٍ أخرَى، فهذا جزاءُ الموحِّدين، وهذا جزاءُ المشركين.

وهذا المعنى العامّ من العلوم المهمَّة للمفسِّر؛ لأنّ سُوَرَ القرآن لا تخرج عن هذه الأحوال الأربعة، فكلُّ سُورة إمَّا أن تتناولَ هذه الأقسامَ الأربعةَ، وإمَّا أنْ يكونَ في السُّورة بعضٌ من هذه الأقسام.

لهذا فإن موضوعَنا هو موضوعٌ في التفسير، والتفسيرُ أبوابُه كثيرة ومختلفةٌ، ولكن قلَّتِ العنايةُ في هذا الزمن بالتفسير؛ لأن كثيرين يظنونَ أنهم يعلمون كلامَ الله -جل وعلا-، ولا شكَّ

أن الذي يعلمُ كلامَ الله -جل وعلا- ويعلمُ معانيَه، ويدركُ مراميَه، وإعجازَه وبلاغتَه وما فيه، فإنه سيكون ملتذًّا بهذا القرآن مقْبِلاً عليه، يخشعُ قلبُه، وينشرحُ صدرُه حين يقبلُ على هذا القرآنِ.

إذن الوصيةُ أن يهتمَّ الجميعُ بالقرآن حِفْظاً وتِلاوة، ثم الاهتمامُ بتدبُّر القرآن وتفسيره في ضوء كُتُب التفسير المعتمَدة وخاصّةً كلامَ الصحابةِ والتابعينَ وتابعيهم، والمأمونينَ من أئمة أهل العلم والدين والتفسير.

* * *

مقاصد السُّور:

العلمُ بمقاصد السُّوَر لم ينصَّ عليه الأوائلُ، وإنَّما اعتبره الصحابةُ والتابعون بالاستقراء اعتبروه في تفسيره، ولكن لم يُنَصّ على هذا العلم بهذا الاسم إلا عند المتأخرين[1]، وذلك شأنُ جميع العلوم، فإنَّ العلوم كانت ممارسةً عند السَّلَفِ، لكن لم تكن التسميةُ موجودةً.

فعلمُ النحوِ كان ممارَساً ولم يكنْ موجوداً.

البلاغةُ كانت ممارسةً ولم تكنْ موجودة.

علمُ أصولِ الفِقْه كان ممارَساً.

استنباطُ الأحكام من القواعد الأصوليَّة لم يكن موجوداً بهذا الاسمِ، وهكذا في علوم القرآنِ في أنحاءٍ شتَّى.

(١) أفرده بالتأليف العلامة أبو جعفر بن الزبير شيخ أبي حيان في كتاب سمّاه «البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن».

وهكذا في مصطلح الحديث وعلوم أخرى.

فما المقصودُ بعلم مقاصد السُّوَر؟ معلومٌ أن الله -جل جلاله- هو الذي تكلَّم بهذا القرآن، وأن القرآنَ كلامُه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾[1].

فالقرآنُ كلامُ الربِّ -جل جلاله- ومقاصدُ السُّوَر يعني بها أهلُ هذا العلم الموضوعاتِ التي تدور عليها آياتُ سورةٍ ما، يعني أنَّ سورةً من السُّوَر التي في القرآن، أو أن معظم السور، أو كلَّ السُّوَر لها موضوعٌ ومقصِدٌ تدور عليه الآياتُ والمعاني التي في هذه السُّورة.

إذا عُلم هذا المقصِدُ -يعني هذا الغرضُ أو هذا الموضوع- فإنَّ فَهْمَ التفسير سيكون سهلاً، بل سيَفْهَمُ المرءُ كلامَ الأولين،

(١) (التوبة: ٦)

وسيَفهَم كلامَ المحقِّقين بأكثرَ مما إذا أخذ الآياتِ مجرَّدةً عن موضوع السُّورة.كما سيأتي في مثالين نستعرضُهما إن شاء الله تعالى.

بحثُ مقاصد السُّوَر لم يكن مبكِّراً وإنَّما بُحث قبلَه بحثٌ يسمَّى المناسباتِ[1]، والعلماءُ اختلفوا في موضوع المناسَبات، ويعنون بها هل الآيةُ هذه جاءت بعد الآيةِ لمناسبةٍ؟

هل بين الآيةِ الأولى والثانية رابطٌ؟ والثانية والثالثة بينها مناسبةٌ؟

(١) معنى المناسبة: في اللغة المشاكلةُ والمقاربةُ، ومرجِعُها في الآيات ونحوها إلى معنىً رابط بينها عامّ أو خاصّ، عقليّ أو حسيّ أو خياليّ أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهنيّ، كالسّبب والمسبب، والعلّة والمعلول، والنظيرين والضدَّين، ونحوه.

وفائدتُه: جعلُ أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباطُ، ويصير التأليف حاله حالَ البناء المحكَم المتلائم الأجزاء. انظر «الإتقان» (٣: ٣٢٣).

هل هذه الآياتُ في نظامِها بينها وبين موضوع السُّورة اتصالٌ؟

هذا يُبحث في علم التفسير، ويُبحث في إعجاز القرآن، لهذا عدَّ طائفةٌ من العلماء أنَّ من وجوه إعجاز القرآن، وهو المنزَلُ آيةً وبرهاناً ومعجِزاً للخلق أجمعين أن يكون للسورةِ موضوعٌ تدور عليه، وأن يكونَ بين الآياتِ ترابطٌ، هذه الآيةُ بعد تلك، هذه القصةُ بعد تلك لغرضٍ معلوم. لهذا قلَّ مَنْ يَطْرُق هذا الموضوع من المفسِّرين أو من العلماء.

* * *

أسبابُ قلّة علم مقاصد السُّوَر:

السببُ الأَوَّل: أن فيه نوعاً من الجُرأة على كتاب الله -جل وعلا-.

ولهذا ذهبَ طائفةٌ من العلماء إلى أنَّ السُّوَرَ ليس لها موضوعات، وإلى أن الآيات لا تناسُبَ بينها .وهذا قال به قليلون وغُلِّطوا في ذلك، فموضوعُ السُّورة يحتاج إلى قراءة السُّورة عدةَ مرات، وتدبُّرِ ذلك ومعرفةِ كلامِ العلماء في التفسير حتى نفهمَ هذه السورةَ، وما الموضوعُ الذي تدورُ عليه.

السببُ الثاني: أنَّ كثيرينَ من أهل العلم لم يتناولوا التفسيرَ إلا عبر مدرسةِ تفسيرِ الآيات.

ومدرسةُ تفسيرِ الآيات منقسمةٌ إلى مدرستَيْنِ: مدرسةِ التفسيرِ بالأَثَر. ومدرسةِ التفسير بالاجْتهاد، وكلها راجعة إلى تفسير الآية وتفسيرِ الكلمات في الآيات، أمَّا الربطُ بين

الآياتِ فلم يكنْ من مدارسِ التفسير المعروفة، ولذلك لم يكنْ له ذكرٌ ولا عنايةٌ عند أهل العلم بالتفسير.

السببُ الثالث: في عدم اشتهار هذا الموضوع: أنَّ مَنْ تَجَرَّأ وكتبَ فيه من أهل العلم وقال: إنَّ للآياتِ تناسباً وإنَّ للسُّور موضوعاتٍ رَدَّ عليه طائفةٌ من العلماء وغلَّطوه بل رَمَوْه إلى القول على الله -جل وعلا- بلا علمٍ، فهابَ كثيرونَ أنْ يدخلوا هذا المضمارَ لأجل براءة الذِّمَّة، ولأجل ألاَّ يُحَمِّلوا أنفسهم مالا يُطيقون. وهذا مقصِد صالح، ولغير ذلك من الأسباب.

* * *

أقوالُ العلماء في ترتيب الآيات والتناسُق بين الآيات:

العلماءُ في موضوع ترتيبِ الآيات والتناسُق بين الآيات وأن هذه الآيةَ بعد هذه الآية لغرضٍ، وأنَّ هذه القصةَ بعد هذه القصةِ لغرض، وأنَّ السُّورةَ لها موضوعٌ ومقصِدٌ.

اختلف العلماءُ في هذا على ثلاثة أقوال:

القول الأول: هو أنه لا تناسُبَ بين الآياتِ، بل تنزل الآيةُ بحسب الوقائعِ، وتوضَعُ في المصحف بحسبِ ما يأمرُ اللهُ -جل وعلا- جبريلَ به فيأمرُ به النبيَّ ﷺ أن ضَعِ الآية في سورة كذا في موضع كذا، وأن هذا بحسب الوقائع، وبحسب الأحوال، ولا يقتضي ذلك تناسُبًا بين الآية والآية وصِلَةً بين الآية والآية.

القول الثاني: أن سُوَر القرآن لا تخلو سورةٌ إلَّا ولها موضوعٌ، وليس ثَمَّ آية بعد آية إلَّا وبينها تناسقٌ وصِلةٌ، وأنه بين أول

السورة وبين ختام السورة تناسبٌ، وأنه بين آخر السورة وأولِ السورة التي تليها تناسبٌ واتّساق في الموضوع.

وهذا قولُ قِلةٍ من أهل العلم منهم «البِقاعيّ»[1] فيما صنف في «نَظْم الدُّرَر في تناسُب الآي والسُّوَر»، والسيوطيُّ وجماعةٌ ممن قبلهما وبعدهما.

القول الثالث: هو القولُ الوَسَطُ، وهو أعدل الأقوال[2] أن سور القرآن منها سورٌ يظهرُ للمجتهد والعالم بالتفسير

---

(١) هو «إبراهيم بن عمر برهان الدين البقاعي» المتوفى سنة (٨٨٥هـ).«البدر الطالع» (١: ١٩).

(٢) قال الشيخ عزالدين بن عبدالسلام: المناسبة علم حسنٌ، ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متّحد مرتبطٍ أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر...

قال بعض مشايخنا المحققين: قد وهم مَنْ قال: لا يُطلب للآي الكريمة مناسبة؛ لأنها على حسب الوقائع المتفرقة. وفصلُ الخطاب أنها على حسب

=

موضوعُها ويظهر بين آياتها من التناسبِ فهذا إذا ظهر فلا حرجَ في إبدائه، لأن اللهَ -جل وعلا- جعل القرآن محكماً: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[1]، فالقرآن كتابٌ لو بحثتَ فيه عن خللٍ، أو عن عدمِ اتِّساقٍ لن تجدَ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا

=

الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيباً، فالمصحف كالصحف الكريمة على وَفق ما في الكتاب المكنون، مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف. وحافظ القرآن العظيم لو استُفتى في أحكام متعددة، أو ناظَرَ فيها، أو أملاها لذَكَر آية كل حكم على ما سئل، وإذا رجع إلى التلاوة لم يَتْلُ كما أفتى، ولا كما نزل مفرَّقاً، بل كما أنزل جملة إلى بيت العزة، ومن المعجز البين أسلوبُه، ونظمُه الباهر، فإنه ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١). قال: والَّذِي ينبغي في كلّ آية أن يبحث أوّلَ كلِّ شيءٍ عن كونها مكملةً لما قبلها، أو مستقلة، ثم المستقلة؛ ما وجْهُ مناسبتِها لما قبلها؟ ففي ذلك عِلمٌ جَمّ، وهكذا في السُّوَر يُطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سِيقتْ له. انظر «البرهان» (١: ٣٧).

(١) (هود: ١).

كَثِيرًا ﴾[1]، فإذا ظهرتِ المناسبةُ، وظهرَ الموضوعُ فلا مانعَ أن يقال: هذه السورةُ موضوعُها كذا، وهذه الآيةُ بينها وبين ما قبلها مناسبةُ كذا، بحسب ما يظهرُ للعالم بالتفسير، وللمجتهدِ دون أن يكون الهمُّ تطلب ذلك والتكلّف فيه، لأن التكلُّف في الشيء قد يُفضي إلى القول في المسألة بلا عِلْمٍ، وإلى الاجتهادِ فيما لا طائلَ منه، وقد يكون الاختلافُ فيه كثيراً.

القول الثالث: هو القولُ المعتدِلُ الذي سلكَه طائفةٌ من العلماءِ بالتفسير والعلماءِ بالاجتهادِ، ومنهم ابنُ تيميَّةَ -رحمه الله- وابنُ القيِّم وجماعةٌ من المحققين في التفسير.

ويظهر لك صوابُه فيما إذا نظرتَ إلى الكتب المؤلفة في مقاصدِ السُّوَر، وتناسبِ الآياتِ والسُّوَر ونحو ذلك،

(١) (النساء: ٨٢).

فإنَّ فيها أشياءَ متكلفةً، وفيها أشياء يتضح حسنُها، بل إذا نظرتَ إليها وتدبَّرتَ ما قيل من المناسباتِ، والاتصالِ بموضوعاتِ السُّوَر زادَك يقيناً بأنَّ هذا القرآنَ إنَّما هو كلامُ الله -جل وعلا-، وإذا قرأتَ السُّورةَ أحسسْتَ بتأثيرٍ فيها ليس كتأثيرِ مَنْ لم يعلْم موضوعَ السُّورة، ولا تناسُبَ الآيات فيما يُذكرُ.

لهذا نقول: إنَّ هذه الأقوالَ الثلاثةَ المختارُ منها هو الثالثُ، وهو الذي ينبغي أن يُعْتَنَى به من كلام أهل العلم؛ لأن فيه الفائدةَ المرجوَّةَ إن شاء الله -تعالى-.

* * *

المؤلَّفاتُ في علم مقاصد السور:

المصنفاتُ في هذا الباب كثيرةٌ حتى زعم «ابنُ العربي المالكيُّ»[1] -وهو من أهل الأندلس- قد اتصل بالمشرق فترةً من عمره زعم أنه كتب كتاباً في مقاصِد السور، وتناسُبِ الآيات والسُّوَر، وعَرَضَه على الناس في زمانه، قال: (فرأيتُ الناس بَطَلَةً لم يُقْبلوا عليه، ولم يهتمُّوا له مع عظيم

(١) قال القاضي «أبو بكر بن العربي» في «سراج المريدين»: ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني علمٌ عظيمٌ، لم يتعرض له إلا عالمٌ واحد عمل فيه سورةَ البقرة، ثم فتح الله -عز وجل- لنا فيه، فلمَّا لم نجدْ له حَمَلة، ورأينا الخلقَ بأوصاف البَطَلَة ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله، ورددناه إليه.

وقال الشيخ أبو الحسن الشهرباني: أولُ من أظهر ببغداد علمَ المناسبة ولم نكن سمعناه من غيره هو الشيخ الإمام أبو بكر النيسابوري (المتوفى سنة ٣٢٤هـ) وكان غزير العلم في الشريعة والأدب، وكان يقول إذا قرِئَ عليه الآية: لِمَ جُعِلَتْ هذه الآيةُ إلى جنب هذه؟ وما الحكمةُ في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يُزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة. أ. هـ. «البرهان» للزركشي (١: ٣٦).

علمه وشرفِ معلومه)، قال: (فلما رأيتُ ذلك الإعراض منهم أحرقْتُه وجعلتُه بيني وبين الله، جل وعلا).

وكَتَبَ أيضاً «الرازيُّ»[1] في تفسيره بعضَ المناسبات.

وإلى أن وصل الأمر إلى «الزركشيّ»[2] عرض في كتابه (البرهان في علوم القرآن) أبواباً جيدةً في التناسُبِ والمقاصد وهي قصيرة، لكنها فيها تأصيل لهذه المسألة، ثم جمع ذلك مع تأمل «البِقاعيّ» في كتابه الكبير في

(١) قال الرازيّ في سورة البقرة: ومَنْ تأمّل في لطائف نظم هذه السورة، وفي بدائع ترتيبها عَلِمَ أن القرآن كما أنّه معجِز بحسب فصاحة ألفاظه، وشرف معانيه، فهو أيضاً بسبب ترتيبه ونظم آياته، ولعلَّ الذين قالوا: إنه معجز بسبب أسلوبِه أرادوا ذلك، إلا أني رأيتُ جمهور المفسّرين معرِضين على هذه اللطائف غيرَ منتبهين لهذه الأسرار، وليس الأمرُ في هذا الباب إلا كما قيل:

والنّجمُ تَستصغرُ الأبصارُ صورتَهُ والذَّنْبُ للطَّرفِ لا للنَّجمِ في الصِّغَرِ

(٢) هو العلامة «بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر الزركشي» توفي بمصر سنة ٧٩٤هـ. انظر «الدرر الكامنة» (٣: ٣٩٧)، و«شذرات الذهب» (٦: ٣٣٥).

التفسير الذي أسماه «نظم الدّرر في تناسُبِ الآيات والسُّوَر» وهو مطبوع في الهند، كتاب كبيرٌ في نحو ٢٢ مجلداً، والتزمَ فيه بأن يذكرَ مقصدَ السُّورة، وأن يذكر التناسُبَ بين كلِّ آيةٍ والتي قبلَها والتي بعدَها، والتناسب بين آخر السورة وقبلها إلى آخر ما ذكر، مما جعله متكلفاً في كثير من المواضع، حتى قال عن نفسه: ربما مكثتُ شهراً في تأمُّل آية بعد آية؛ لتتكشف لي المناسبةُ بينهما، وعلماءُ عصره منهم من ردَّ عليه في هذا التكلُّف الذي تكلَّفه في كتابه.

ثم «السيوطي»[1] كتب أيضاً عدّة كُتُب في ذلك، وذكر في كتابه إعجاز القرآن الذي هو باسم «معترك الأقران في

(١) انظر «الإتقان في علوم القرآن» (٣: ٣٢٢).

إعجاز القرآن» ذكر من وجوه الإعجاز العلميِّ بالمقاصد وتناسُبِ الآياتِ والسُّوَر إلى آخر ذلك.

إذن هذا العلم بَحَثَه علماءُ التفسير، والذين كتبوا في علوم القرآن، ولكن ما بين مجيدٍ فيه، وما بين مقصِّرٍ في ذلك.

* * *

مقاصد بعض السُّور إجمالاً:

إذا تأملتَ هذا الموضوعَ وجدت أنَّ كثيراً من المفسرين يقولون: هذه السُّورة فيها الموضوعُ كذا، مثل ما قال شيخ الإسلام ابن تيمية[1] مثلاً في سورة المائدة بأن هذه السورةَ كلَّها مختصةٌ بعلم الأحكام الحلال والحرام والعقود خاصة، حتى قصص الأنبياء التي فيها لها صلة بالأحكام وحتى قصة ابني آدم لها صلة بهذا الموضوع.

سورةُ الفاتحة سميت أمَّ القرآن؛ لأن مقاصد القرآن التي فيه هي في سورة الفاتحة، وهكذا.

إذن من أهل العلم مَنْ نصَّ على الموضوع والمقصد،

(١) قال في «مجموع الفتاوى» (١٤: ٤٤٨): «سورةُ المائدة أجمعُ سورة في القرآن لفروع الشرائع من التحليل والتحريم، والأمر والنهي، ولهذا رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: هي آخرُ القرآنِ نزولاً فأحلُّوا حلالَها، وحرِّموا حرامَها..».

ومنهم مَنْ عرضَ له عمليًّا بدون التنصيص.

كيف يمكن أن يَفْهَمَ المتدبِّرُ أو المفسِّرُ الموضوعَ؟ يعني إذا أراد أن ينظرَ كيف يَعرف موضوعَ الوسائل التي بها يَعرفُ موضوعَ السُّورة.

* * *

الوسائل التي يعرف بها موضوع السورة:

نذكر من ذلك بعض الأمور:

الوسيلة الأولى: أن ينصَّ العلماءُ أو طائفةٌ من العلماء المحققين على أنَّ هذه السورةَ في الموضوع الفلانيّ، مثلاً سورة الإخلاص في توحيد الأسماءِ والصفات، أو في التوحيد العلميّ الخبريّ.

سورةُ الكافرون ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ في توحيد الطلب (توحيد العبادة).

سورةُ الفاتحةِ في بيان محامد الربّ، جل وعلا.

سورةُ النحلِ في النعم.

سورةُ الكهفِ في الابتلاء[٢].

(١) قال شيخ الإسلام «ابن تيمية» في «مجموع الفتاوى» (١٥: ٢٣٠): «سورة مريم مضمونها تحقيق عبادة الله وحدَه. وأن خواص الخلق هم عباده، وتضمنت الردَّ على الغالين الذين زادوا في النسبة إلى الله حتى نسبوا إليه عيسى بطريق الولادة، والردّ على المفرطين في تحقيق العبادة وما فيها من الكرامة، وجحدوا نعم الله التي أنعم بها على عباده المصطفين».

=

....

=

وقال أيضاً في «مجموع الفتاوى» (١٥: ٢٣٧): «سورة طه مضمونها تخفيف أمر القرآن وما أنزلَ الله -تعالى- من كتبه، فهي سورة كتبه».

وقال أيضاً في «مجموع الفتاوى» (١٥: ٢٣٧): «أن مريم سورة عباده ورسله».

وقال أيضاً في «مجموع الفتاوى» (١٥: ٢٦٦): «سورة الحج تضمنت منازل المسير إلى الله، بحيث لا يكون منزلة ولا قاطع يقطع عنها، ويوجد فيها ذكر القلوب الأربعة: الأعمى، والمريض، والقاسي، والمخبت الحي المطمئن إلى الله.

وفيها من التوحيد والحِكَم والمواعظ على اختصارها ماهو بيِّن لمن تدبره، وفيها ذكر الواجبات والمستحبات كلها توحيداً، وصلاة، وزكاة، وحجاً، وصياماً، قد تضمن ذلك كله قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩﴾ (الحج: ٧٧)، فيدخل في قوله: (وافعلوا الخير)، كلُّ واجب ومستحب، فخصَّص في هذه الآية وعمَّم، ثم قال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ (الحج: ٧٨) فهذه الآية وما بعدها: لم تتركْ خيراً إلا جمعتْه ولا شرًّا إلا نفته.

وقال أيضاً في «مجموع الفتاوى» (١٦: ٤٧٨): «سورةُ الزلزلة، والعاديات، والقارعة، والتكاثر، متضمنة لذكر اليوم الآخر، وما فيه من الثواب والعقاب..»

«ثم سورة العصر والهمزة والفيل والإيلاف وأرأيت والكوثر والكافرون والنصر وتبّت، متضمنةٌ لذكر الأعمال حَسَنِها وسيئها، وإن كان لكل سورة خاصة.

وأمَّا سورةُ الإخلاص، والمعوذتان ففي الإخلاص الثناءُ على الله، وفي المعوذتين دعاءُ العبد ربه ليعيذه، والثناء مقرون بالدعاء كما قرن بينهما في أم القرآن المقسومة بين الربّ والعبد نصفُها ثناءٌ للرب، ونصفُها دعاءٌ للعبد..».

سورةُ العنكبوت في الفتنة.

سورةُ البقرة في بيان الكليَّات الخمسِ والضروريّات التي تدورُ عليها أحكامُ الشريعة، وبيان عدو من أعداء الإسلام وهم اليهود.

سورةُ آل عمرانَ في تكميل ذلك مع بيان عدوّ جديد وهم النَّصارى، والحوار معهم ثم مجاهدة المشركين.

سورةُ النساء في بيان أحكام النساء والمواريث وخُصص ذلك للنساء لأجل هضم الجاهليةِ لحقوق النساء ونحو ذلك، ثم بيان أحكام العدوِّ الثالث وهم المنافقون.

ثم سورةُ المائدة في بيان أحكام الحلال والحرام والعقود. إلى آخر ذلك مما هو تفصيل للأحكام الكلية الخمس وأحكامِ الشريعة التفصيليَّة، وهكذا في أنحاءٍ شتّى، وهذا ينصُّ عليه طائفةٌ من العلماء بأن هذه السُّورةَ

في الموضوع الفلاني.

إذن نعلم موضوع السُّورة بأن ينصَّ على هذا الموضوع أو هذا المقصد للسُّورة بعضُ أهل العلم، فيقال: هذه السورةُ في الموضوع الفلاني، كذلك المناسبات بين الآي بأن ينصَّ بعض أهل العلم المحققين الراسخين بأن هذه الآيةَ جاءت بعد هذه الآية لأجل كذا، لما بينهما من الارتباط، أو هذه السورة بعد هذه السورة لما بينهما من الارتباط، وهكذا.

الوسيلة الثانية: أن يكون موضوعُ السورة ظاهراً من أوَّلها، ثم يظهر للمفسِّر أنَّ كلَّ السورة مبني على أولها مثل سورة القيامة: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[1]، كلُّ ما فيها ذكرٌ بأحوال القيامة، ثم أحوالِ

(١) (القيامة: ١-٢).

الموت أو وسائل الإيمان بيوم القيامة، لهذا بحث هنا مثلاً في سورة القيامة عند من اعترض على موضوع السورة في قول الله -جل وعلا-: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾(١)، قال طائفة من العلماء -طائفة يعني واحد أو أكثر-: إنَّ هذه الآياتِ لا صلةَ لها بموضوع القيامة والموت والعاقبة إلى آخره.

وذكر الآخرون مناسبةَ ذلك وبيَّنوه مما هو ظاهر بيِّنٌ، كذلك تأخذ سورة الواقعة مثلاً: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾(٢)،

---

(١) (القيامة: ١٦-١٩).

(٢) (الواقعة: ١-٧).

سورةُ الواقعة موضوعُها حولَ تقسيم الناس يوم القيامة. ينقسمون إلى أقسام ثلاثة:

السابق، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، ثم بعد ذلك أدلة تتعلق بهذا الأصلِ، ثم حال الناس عند النزع، وأينَ تذهبُ أرواحُهم، فتلحظ من السورة أنَّ الموضوعَ بيّن من أولها إلى آخرها، وهذا يتضحُ لك من أول السورة. إذن الوسيلة الثانية لاستخراج المقصد أن يكون موضوعُ السورة ظاهراً من أولها.

الوسيلة الثالثة: الاستقراءُ للآي من عالِمٍ بالتفسير إمَّا استقراءً كاملاً، أو استقراءً أغلبيًّا.

وقد ذكر علماءُ الأصولِ أنَّ الاستقراء الذي يُحتج به على قسمين:

الاستقراءُ الكامل، أو الاستقراءُ الأغلبي؛ لأنه ما

من قاعدةٍ إلاَّ ولها شواذٌّ، فالاستقراءُ الأغلبيُّ حجةٌ كالاستقراء الكليّ في الاحتجاج، ولكن في القوة الاستقراء الكليّ أعظمُ من الاستقراء الأغلبيّ، فإذا استقرأ الآيات، واستخرج المفسرُ موضوعاً، ولو لم يسبق إلى ذلك فإنَّ هذه وسيلةٌ ظاهرة من وسائل إدراك المعنى لاسيَّما إذا كان مصيباً فيه غيرَ متكلِّف في ذلك، وهناك وسائل أُخَرُ.

إذا تبيَّن ذلك بعد هذا العرض العلميّ النظريّ، نأتي إلى بيان مثال لمقصدِ السورة، ثم النظر في الآيات التي تدورُ حول هذا المقصد. نأخذ مثالين:

الأول سورةُ الفاتحة باختصارٍ، والثاني سورةُ العنكبوت بنوعٍ من الإسهاب.

فنقول وبالله نستعين:

موضوعُ سورة الفاتحة

أمَّا سورةُ الفاتحة فهي فاتحةُ الكتاب وهي أمّ القرآن وتسمى أيضاً سورةَ الحمد، افتتحها اللهُ -جل وعلا- بحمده فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] وحمدُه -جل وعلا-، هو الذي تدور عليه السورةُ، بل أول الخلق ابتُدئ بالحمد، وآخر ما ينتهي إليه الخلق إلى الحمد، والناس في الأولى والأخرى بل الخلقُ كله من الناس وغيرهم من المكلّفين وغير المكلّفين يدورونَ بين الحمد، ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾[2] -سبحانه وتعالى- خَلَقَ السماواتِ والأرضَ بالحمد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[3]، وحين ينتهي الجزاءُ: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[4]، وقوله (قيل) أي: قال الوجود وقالت الخلائق بعد أن دخل أهلُ الجنة الجنةَ وأهلُ النار النارَ واستقرت الأمور، فافتتح الله

(١) (الفاتحة: ٢). (٢) (القصص: ٧٠). (٣) (الأنعام: ١).
(٤) (الزمر: ٧٥).

-جل وعلا- الكتابَ بحمده، كما أنه حَمِدَ نفسَه على إنزال القرآن فقال: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾[1]، فإذا كان كذلك فالحمدُ دارتِ الحياةُ عليه، والخلقُ عليه، وإنزالُ الكتب وبعث الرسل عليه، ولهذا صار الحمدُ هو أعظم ما يفتتح به الكتاب الخاتم[2]، قال -جل وعلا-: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

الحمدُ يدور حولَ خمسةِ معان:

(١) (الكهف: ١).

(٢) قال «ابن كثير»: لما ذكر الله -تعالى- حكمَه في أهل الجنة والنار، وأنّه نَزَّل كلاًّ في المحلِّ الذي يليق به ويصلح له، وهو العادلُ في ذلك الذي لا يجور، أخبرَ عن ملائكته أنهم محدقون من حول عرشه المجيد، يُسبحون بحمد ربهم ويمجدونه ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور، وقد فصل القضية، وقضَى الأمر، وحَكَمَ بالعدل، ولهذا قال: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾، أي: بين الخلائق ﴿بِٱلْحَقِّ﴾.

ثم قال: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: نطق الكونُ أجمعُه، ناطقُه وبهيمُه -لله رب العالمين- بالحمد في حكمه وعدله، ولهذا لم يُسندِ القول إلى قائلٍ، بل أطلقه، فدلّ على أن جميع المخلوقات شَهِدَتْ له بالحمد.

قال قتادة: افتتح الخلق بالحمد في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ واختتم بالحمد في قوله: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. «تفسير ابن كثير» (١٢٥:٧).

لهذا إذا تأملتَ القرآنَ وجدتَ أنَّ الحمد يدور حول خمسة معانٍ:

المعنى الأول: أن يُحْمَدَ اللهُ -جل وعلا- على ربوبيته.

المعنى الثاني: أن يُحْمَدَ على ألوهيته.

المعنى الثالث: أن يُحْمَدَ على أسمائه وصفاته.

المعنى الرابع: أن يُحْمَدَ -جل وعلا- على خلقه -سبحانه وتعالى- وإحداثِه وإبداعِه الكائنات.

المعنى الخامس: أن يُحْمَدَ اللهُ -جل وعلا- على شرعه وكتابه وما أُنزل.

هل يدخل الحمدُ بمعنى الشكر في أحد هذه الأقسام الخمسة للحمد؟

نعم وهو الحمدُ على خلق الله -جل وعلا- للصغير والكبير؛ لأنه ما من نعمةٍ تُسْدَى إليك إلا والله -جل وعلا- هو الذي خلَقها فيُحْمَدُ على ما أسْدَى وعلى ما أرسل.

إذن سورةُ الفاتحة تدورُ في موضوعها على أركان حمدِ الله -جل وعلا- والقرآنُ كله لو استوعب فإنه يدور من أوله إلى آخره على أنواع حمد الله -جل وعلا- فإما أن تكون الآيةُ أو السورةُ في حَمدِهِ -سبحانه- على ربوبيَّته أو على ألوهيَّته أو على أسمائه وصفاته أو على شرعه وكتابِه وما أنزل، أو على خلقه وقدره -سبحانه وتعالى-.

إنّ أنواعَ المحامد كثيرةٌ لا تُحصى لكن جِمَاعُهَا خمسةٌ، لو استَحْضَرَهَا العبدُ، أو اسْتَحْضَرَ واحداً منها كُلَّ مَرَّةٍ وهو يقرأُ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، لَفُتِحَ له أنواعٌ وأبوابٌ من محبةِ اللهِ، ومِنْ تَمْجِيدِهِ وتَعْظِيمِهِ وحُسْنِ الثناءِ عَلَيْهِ، ولَفُتِحَ له علومٌ وعباداتٌ قلبيةٌ لا يَعْلَمُهَا إلاَّ مَنْ عَاشَهَا وعَرَفَهَا.

فَحَسَنٌ أن يُعَوِّدَ العبدُ المؤمنُ نفسَه أن يستحضر واحداً من أنواع المحامد في الصلاة وبعد الصلاة.

* * *

معنى الحمد:

ما معنى الحمد؟

الحمدُ: هو الثناءُ عن محبةٍ على المحمودِ، فإنْ كان الثناءُ عن غير محبةٍ سُمِّيَ مَدْحاً، واللهُ -جلَّ وعلا- ممدوحٌ ومحمودٌ، وحَمْدُهُ أعظمُ من مدحِه -جل وعلا-؛ لأنَّ المدحَ قد يكون عن غيرِ محبةٍ، أما الحمدُ فهو ثناءٌ بأوصافِ الكمالِ على المحمودِ والمحبوبِ.

قال العلماء: الحمدُ هو إثباتُ أنواع الكمالات للمحمود بحيث إنه فيما أثبت له من الكمال لا نقص له فيه بوجهٍ من الوجوه، والله -جل وعلا- هو المُثْبَتُ له أوجه الكمال في ربوبيّته، وأوجه الكمال في إلهيته، وهو المُثْنَى عليه بأوجه الكمال في ألوهيّته وربوبيّته وأسمائه وصفاته وفي شرعه وتنزيله وكتابه وفي قدره -سبحانه وتعالى-.

إذن فـ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ معناها: كلُّ أجناسِ المحامِدِ، وكُلُّ أنواعِ الثناءِ مستحقَّةٌ للهِ المعبودِ بحقٍّ، الذي هو (ربُّ العالمينَ)، المُتَصَرِّفُ في العالمينَ في أجناسِ العوالِمِ، في البرِّ والبحرِ، وفي الأرضِ والسماءِ، ما عَلِمْنَا ومَا لم نَعْلَمْ، ما رَأَيْنَا وما لم نَرَه، ما سَمِعْنَا وما لم نسمعْهُ، فكلُّ ثناءٍ مستحِقٌّ لله -جل وعلا- الذي له الرُّبوبيةُ الكاملةُ على خلقِهِ أجمعينَ.

* * *

أنواع «أل» التي للتعريف ثلاثة:

تكون «أل» للاستغراق، وللملك، وللاختصاص.

تأتي الألف واللام لثلاثة أنواع في التفسير:

«أل» في (الحمد) للاستغراق، وذلك إذا كان يصحُّ أن تضعَ مكانها (كلّ) أي: كلُّ الحمد لله (١)، إذن هي للاستغراق نقول: (الحمد لله رب العالمين) هذه مستغرقة لجميع أنواع المحامد لله -جل وعلا-، أي أنواع المحامد الخمسة التي ذكرناها.

«أل» في (لله): اللام هنا الثانية هذه للاستحقاق، يعني كل

---

(١) قال «ابن القيم» -رحمه الله-: «في ذكر هذه الأسماء - أي: الله، الرب، الرحمن - بعد الحمد، وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها ما يدلّ على أنه محمودٌ في ألوهيته، محمودٌ في ربوبيته، محمودٌ في رحمانيته، محمودٌ في ملكه، وأنه إله محمودٌ، ربٌّ محمودٌ، ورحمن محمود، وَملِكٌ محمود، فله بذلك جميعُ أقسامِ الكمالِ..» انظر «بدائع التفسير» (١: ١٤٢).

حمد لله -جل وعلا- فهو مستحقٌّ له -سبحانه وتعالى-.

«أل» التي في (الحمد): للتعريف.

واللام في (لله) لام حرف جرّ هي لام الاستحقاق، ومعنى الاستحقاق هاهنا الملكُ، فالله -جل وعلا- هو مالكُ المحامد، وكذلك هو مستحقُّها لا يستحقها على هذا الوجه العظيم إلا هو - جل جلاله.

إلى أيِّ شيءٍ يرجع (ربّ العالمين)؟

الجواب: إلى الربوبية وقد ذكرنا لك أن أركان الحمد يعني ما يثنى على الله به الربوبية فقال:﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ هذا فيه الصفات، ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ فيه الصفاتُ وفيه الشرعُ والكتابُ، وفيه أيضاً الخلقُ والأمرُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فيه الألوهيةُ.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيه الربوبيةُ، وفيه أيضاً القَدَرُ؛ لأنك

تستعين بمن يعين بما يحدثُ في ملكوته[1].

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، النعم الدينية هي الهدايةُ إلى الصراط المستقيم، فهو المحمودُ

---

(١) قال «ابن القيم» -رحمه الله-: «إن القلبَ يعرض له مرضانِ عظيمان، إن لم يتداركْهما تراميا به إلى التلف ولابد: وهما الرياء، والكبر. فدواء الرياء بـ﴿إياك نعبد﴾، ودواء الكبر بـ﴿إياك نستعين﴾.

وكثيراً ما كنت أسمعُ شيخَ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول ﴿إياك نعبد﴾ تدفع الرياءَ ﴿وإياك نستعينُ﴾ تدفع الكبرياء.

فإذا عوفي من مرض الرياء بـ﴿إياك نعبد﴾ ومن مرض الكبر والعُجْب بـ﴿إيّاك نستعين﴾ ومن مرض الضلال والجهل بـ﴿اهدنا الصراطَ المستقيم﴾ عوفي من أمراضه وأسقامه، ورَفَلَ في أثواب العافية، وتمَّت عليه النعمة، وكان من المنَعم عليهم، غير المغضوب عليهم، وهم أهل فساد القصد، الذين عَرَفوا الحق وعدلوا عنه، والضالين وهم أهل فساد العلم، الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه». انظر «بدائع التفسير» (١: ١٥٧).

وقال شيخ الإسلام -رحمه الله- أيضاً: تأملتُ أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون على مرضاتِه، ثم رأيته في الفاتحة في ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾. انظر «بدائع التفسير» (١: ١٨٠).

على كل نوع من أنواع الهداية للصراط المستقيم، ثم وَصَفَ فقال: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾، وهذا نوعٌ من أنواع النِّعَم التي يُحمد عليها، وهي راجعةٌ إلى أحد أركان الحَمْد، ثم أيضاً يفصل في ذلك في الموضوع بأشياء من نظرٍ آخرَ في أنواع المحامد، وأنواع الصفات، وأنواع العبودية وأنواع الاستعانة إلى آخر ما هنالك.

هذا عرضٌ موجز لما في هذه السورة مما يدورُ ما حولَها مما ذكره بعضُ العلماء.

* * *

موضوع سورة العنكبوت

إنها تدور حولَ الفتنةِ[1]، الفتنةُ ظاهرةٌ في أول السورة قال -جل وعلا-: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، فالفتنةُ ذكرت نصًّا في أول السورة.

بأيِّ شيء تكون الفتنةُ؟ المرء يفتنُ بعقله، يفتنُ بالدنيا، يفتنُ بوالديه، يفتنُ بأهله، يفتنُ بطول المكثِ، وطولِ العُمُرِ، يفتنُ بعدم وجود العذاب، يفتنُ إذن عن إدراك الحقيقة بأنواع من الفتن كلها موجودة في هذه السورة.

---

(١) قال «ابن القيم» -رحمه الله-: «مضمونُ هذه السورة هو سرُّ الخلق والأمْرِ، فإنها سورةُ الابتلاء والامتحان، وبيان حال أهل البلوى في الدنيا والآخرة، ومَنْ تأمل فاتحتها ووسطَها وخاتمتَها وجدَ في ضمنها أن أول الأمر ابتلاءٌ وامتحانٌ، ووسطه صبر وتوكُّل، وآخرُه هدايةٌ ونصر».

إذن في سورة العنكبوت ذَكَرَ الله -جل وعلا- أنواعَ وأصولَ الفتنِ، وذكرَ كيف ينجو المرءُ من هذه الفتنة، لأن حقيقة الحياة إنما هي ابتلاءٌ وفتنةٌ، كما في حديث عِياض بن حِمارٍ المُجَاشِعِيّ الذي رواه مسلم في الصحيح[1]، قال -عليه الصلاة والسلام- قال الله: (إنّما بعثْتُك لأبتليَك وأبتليَ بك)، فحقيقة الحياةِ أنها فتنةٌ، والفتنةُ هل هي بالشرِّ أو بالخير؟ هي بالشرّ والخيرّ معاً: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾[2].

إذن في هذه السُّورةِ ذكر الله -جل وعلا- في أولها: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ مَنْ تشمل كلمة الناس؟ تشمل المؤمنَ والكافرَ، الكبير

(١) في (كتاب الجنة - باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار) (٢٨٦٥).

(٢) (الأنبياء: ٣٥).

والصغيرَ، تشملُ جميع الطبقات في تعاملها مع الجميع ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[1]، تقول: أنا مؤمن، فمتى يُصَدَّقُ الإيمانُ؟ يُصَدَّقُ إذا عُرِضت لك الفتنةُ فنجوْتَ منها بشرعِ الله -جل وعلا-.

وقد تُفتتن بنفسك. هناك أناسٌ يفتتونَ بجمالهم، يفتتونَ بحُسْنِهم، امرأة تفتتَنُ بما عندَها، رجلٌ يُفتتنُ بماله، ولدٌ يُفتتن بوالدَيْه، لذلك تجد أن في هذه السورة ذكراً لجميع أنواع وأصولِ الفتن والإجابة الدقيقة والحل النَّاجِع على ذلك.

* * *

(١) (العنكبوت: ٢).

فتنة الوالد المؤمن مع أبويه الكافرين:

خذْ مثلاً أوّلها قال الله -جل وعلا-: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ﴾، يشمل المؤمن ويشمل الكافر ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾[1]، على الولد أن يصبرَ على هذه المحنة والفتنة ولا يطيعهما بل يصاحبهما على هذه الحال معروفاً، ويعرض عنهما إلى متابعة سبيل رسله، هذه أليست فتنة؟ بلى، إنها فتنةٌ عظيمةٌ.

وقد ذكر المفسرون أنها نزلت في قصةِ «سعد بن أبي وقاص» لما أرادته أمُّه على الكُفْر والشّرك ومع ذلك قال الله -جل وعلا- أن يصاحب والديه حُسناً لكن لا يطيعهم على الشِّرك[2]، قال:﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَيَّ

(١) (العنكبوت: ٨).

(٢) قالت أم سعدٍ: أليس قد أمر الله بالبرِّ، وفي رواية: أليس اللهُ يأمُرُك

=

مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]، وقال في أولها: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾، هذه فتنةٌ عظيمةٌ فما المخرجُ منها؟

المخرجُ منها في تحقيق شرعِ اللهِ ألَّا تطيعَ في الكفر والشِّرك، أو في معصية الله، لكن تصاحب بالحسنى.

ومِنَ الناس من تُعْرَضُ عليه الفتنةُ فيصاحب والدَيْه لا بالحسنى، ولكن بالعقوق ويكون قد وقع في بعضها، لكن مَنْ

=

بصلة الرحم، وبرِّ الوالدينِ؟ واللهِ لا آكُلُ ولا أشربُ شراباً حتى تكفرَ بمحمدٍ، وفي رواية: حتى أموتَ أو تكفُرَ. فكانتْ لا تأكُلُ حتى يَشْجُرُوا فَمَها بعَصًا فَيَصُبُّون فيه الشرابَ - قال شُعْبَةُ: وأُراه قال: والطعامَ فنزلت هذه الآية.

أخرجه «أحمد» في «المسند» (٣: ١٣٦). و«الترمذي» في «جامعه» في (تفسير القرآن - باب سورة العنكبوت) (٣١٨٩) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

قوله: (حتى يَشْجُروا فمَها) أي: يُدخلوا في شَجْرِه -وهو مَفْتَحُهُ- عوداً فيفتحوه.

(١) (العنكبوت: ٨).

يصبرُ، ويصاحبُ بالحسنى، ولا يطيعُ في الكفر والشِّرك هذا هو النجاةُ من الفتنة في هذه الحال.

من أنواع الفتن أن يكون أناسٌ كثيرون يكفرون بالله -جل وعلا- لا يؤمنونَ فيأتي المرءُ فيظنُّ أنه وأهل الإيمان قليل، وأن الكفارَ أو المنافقين أو المجرمين أو العصاة كثيرون كيف هو يستقيم؟ كيف يثبت؟

هذا نوع من الفتنة يعرضُ على القلوب، وقلَّ من الناس من يثبت ينظر إلى الناس فيراهم كلَّهم كذا.

وفي هذه السورة الخبرُ وفيها العلاجُ فاقرؤوا وتأمَّلوا.

من الفتن أيضاً التي ذكرتْ في هذه السورة أن الإنسانَ ينظرُ إلى طول مُكْثِ أعداء الله وأعداء رسوله ﷺ، ينظر إلى طول مكثهم في الأرض يتمتعون بالقوَّة وهم الذين يسيطرون من أعداء الله من الكفار والمشركين فربما

يحمله ذلك على أن تُزَيَّنَ له الدنيا، وأن يُصَدَّ عن سبيل الله: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾[1]، هذه في سورة البقرة، في سورة العنكبوت ذكرَ الله -جل وعلا- أوَّلاً قصةَ نوح -عليه السلام- في آيتين، ما مناسبة هاتين الآيتين لموضوع السورة وهو الفتنة؟ قال -جلا وعلا-: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾[2]، قصة نوح -عليه السلام- في آيتين ما مناسبتُها؟ طول هذا المكث تسعُ مئةٍ وخمسين سنةً وهو يدعوهم، والمؤمن قليلٌ كما أنت تعلم في سُوَرٍ

(١) (البقرة: ٢١٢).

(٢) (العنكبوت: ١٤ ـ ١٥).

أخرى، ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[1].

قال بعضُ العلماء: كان المؤمنون ثلاثةَ عشرَ نفساً.

وقال آخرون: كانوا بضعةً وسبعين من الرجال والنساء، مكثَ ألفَ سنة والشِّرك بالله -جل وعلا- يعلو عبادةَ الأوثان، يعبدون وَدًّا وسُواعَاً ويَغوثَ ويعوقَ ونَسْراً، وهذا يدعوهم وينصحُهم ليلاً ونهاراً وسِرًّا وجِهاراً، ولا مستجيبَ إلا هذه الفئة القليلة، ألا يحصل للقلوب فتنةٌ؟ نعم يحصل فتنة، ليست مرور عشر سنوات، وعشرين سنة، وخمسين سنة، ومئة سنة، ولا مئتين، ولا ثلاث مئة، ولا أربع مئة ولا خمس مئة.. ألف سنة إلا خمسين عاماً، ثم جاء فرجُ الله -جل وعلا-.

إذن فقد يفتتنُ المرءُ بطول مكث الأعداء.

فهذه السُّورةُ نبهت المؤمنَ الصادقَ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ

(١) (هود: ٤٠).

﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1].

وقال في آيةٍ أخرى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[2]، متى يعلمُ؟ إذا عرضت الفتنُ فنجا[3]، إذن موضوع السُّورة عندنا الفتنةُ حتى قصة النبيّ كان مرجعها إلى الفتنة بما ينجيك أنت من الفتنة التي تطاولتْ، بعضُ

(١) (العنكبوت: ١١).

(٢) (العنكبوت: ٣).

(٣) سُئل الإمام الشافعي -رحمه الله-: أيهما أفضل للرجل أن يُمَكَّنَ أو يبتلى؟ فقال: لا يُمَكَّن حتى يُبتلى. واللهُ -تعالى- ابتلى أولي العزم من الرسل فلما صبروا مكَّنهم.

قال «ابن القيم» -رحمه الله-: «والمقصود أن الله-سبحانه- اقتضتْ حكمتُه أنه لابد أن يَمتحن النفوسَ ويبتليها، فيظهر بالامتحان طيِّبُها من خبيثها، ومَنْ يصلح لموالاته وكراماته، ومَنْ لا يصلح، وليمحص النفوس التي تصلح له ويخلصها بكِير الامتحان، كالذهب الذي لا يخلص ولا يصفو من غشِّه إلا بالامتحان؛ إذ النفس في الأصل جاهلةٌ ظالمة وقد حصل لها بالجهل والظلم من الخبث ما يحتاج خروجُه إلى السَّبْكِ والتصفية، فإن خرج في هذه الدار، وإلا ففي كِير جهنم، فإذا هُذِّب العبد ونُقِّيَ أُذِنَ له في دخول الجنة».

انظر «زاد المعاد» (٣: ١٣ ـ ١٨).

الناس يظن أن أمر الله -جل وعلا- يحصل له كما يريد، لا.

حكمةُ اللهِ ماضيةٌ، اللهُ -جل وعلا- يبتلي كما ابتلَى نوحاً -عليه السلام- وقومَه بأنه مكثَ في قومه ألفَ سنة إلا خمسين عاماً، ومع ذلك لم يستجبْ منهم إلا القليل، هذا نوعٌ من الافتتان.

والمخرَجُ منه موجود في هذه السورة وهو الصبر: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

وقصة إبراهيم -عليه السلام- فيها نوعٌ من الفتنة فيمن يجادلُ، فيمن يحاورُ، فيمن يذكره، لا يستسلمون وإنَّما يكيدون ويتخذون أشياء للمودَّة وللدنيا.

وقال:﴿ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾[2]، إذن فيه

(١) (العنكبوت: ١٥).

(١) (العنكبوت: ٢٥).

مجادلات إلى آخره، وهذه يحصل فيها نوعُ افتتانٍ، قلَّ من يصبرُ على الحقِّ ويمكث عليه، وألاَّ يتأثرَ بهذه الفتنة في الشبه التي يلقيها المشركونَ، أو التي يلقيها الكفارُ، وهذه الشبهُ تتجدَّد بتجدّد الأزمانِ، بعدها ذَكَرَ اللهُ -جل وعلا- قصةَ لوط -عليه السلام- وفيها الافتتانُ بشهوة الرجال التي هي مناقِضَةٌ للفطرة، والإعلان بها وأنه لا ضرر منها، ومَنْ نهى عنها إنما هو الذي يُهجّن وهو الذي يُرَدَّ عليه، نهاهم: ﴿وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَ﴾(1)، ولكن قالوا له: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(2)، فتنة؛ لأنَّ زوجة لوطٍ التي هي في بيته كانت ممن وَقَعَ في شِراك أولئك، كانت تمالئهم على كفرهم وبغيهم، فهي تدلُّ الرجالَ على الرجالِ الذين يأتونَ لوطاً أو نحو

---

(١) (العنكبوت: ٢٩).

(٢) (العنكبوت: ٢٩).

ذلك: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾[1]، أي: من الهالكين، هذا نوع من الفتنة بالشهوة، ما المخرجُ من الشهوة؟

المخرجُ أن يعلمَ الإنسانُ أنها فتنةٌ، الشهوةُ التي في جسم الإنسان أرادها الله -جل وعلا- لبقاء النَّسل، ولأن يختبر العبدَ هل يصبر أم لا يصبر؟ هل يتحمّل ويسيرُ على ما أراد اللهُ -جل وعلا- أم يتبع نفسه هواها، ويطلق الحبل على ما يريد، فصارتِ الفتنة.

وأوقع الله -جل وعلا- العقوبةَ بمَنْ لم ينتهوا عن نهيه -جل جلاله-.

من الفتنة أيضاً أن يكونَ الناسُ على علم، وأن يكون المجتمعُ يعلمُ ولكنه لا يأبَه بالعلم، المجتمع الذي ينتشر فيه العلمُ ويعلم الناس الحدودَ ويستبصرون ولكن مع ذلك يخالفون، أليس هذا

(١) (الأعراف: ٨٣).

فتنةً؟ العلم لم يكن في حقهم نعمةً، بل كان نقمةً عليهم وفتنةً.

ولهذا ذكر الله -جل وعلا- أن عاداً وثمودَ كانوا علماءَ، علموا وكانوا مستبصرينَ، لكنهم مع ذلك خالفوا، فقال -سبحانه-: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾[1]، زيَّن لهم الشيطانُ أعمالهم فصدَّهم عن السبيل وكانوا مستبصرين، هل كانوا يجهلون؟ لا، ولكن كان العلم قاصراً؟ لا، يعلمون ولكن زَيَّنَ لهم الشيطان أعمالَهم فصدَّهم عن السبيل، والحالة أنهم كانوا مستبصرين، أي: كانوا على بصيرة، وهذه فتنةٌ عظيمةٌ أن يكون المرءُ على علم فيطيعَ الشيطانَ، ويتركَ العلمَ الموروثَ عن الربّ -جل جلاله- وعن نبيِّه ﷺ.

القوَّةُ أيضاً فتنةٌ، المجادلةُ والحوارُ، كذلك فتنةٌ.

(١) (العنكبوت: ٣٨).

المجادلة والحوار مع الملحد فتنة:

الآن يُطْرَحُ في كثير من الأحيان مباحثُ الحوارِ، كالحوار مع النصارى، الحوارِ بين الحضارات، الحوارِ بين الديانات، الحوارِ بين المذاهب، الحوارِ بين المِلَل إلى آخره.

المؤمنُ الصادق يعلم أن هذا التنوُّع، وهذا التعدّد، وهذا الاختلاف إنما هو دليلٌ من أدلة أنَّ الحقَّ واحدٌ وأنَّ هؤلاء كما قال الله -جل وعلا-: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[1]، أرادوا الطريقَ إلى الله -جل وعلا- فأخطؤوه، لكن هل يحاور المرء أوْلا يحاور؟ هل يجادلُ أم لا يجادل؟ الجواب لا يجادلُ إلا مَنْ علمَ من نفسه الثباتَ في العقيدةِ، والرسوخَ في العلم مع الالتجاء إلى الله -عزوجل- في أن يكون كلامُه مقبولاً لدَى مَنْ يُجادل.

* * *

(١) (الفاتحة: ٧).

شروط الحوار:

نعم يجادلُ مَنْ عنده علم، وليس كلُّ واحدٍ يملك ناصية الجدال، لهذا ذُكِرَ -كما يعلم بعضكم- أنَّ أناساً، جادلوا ملحداً أو جادلوا غير مسلم أو نصرانيًّا أو يهوديًّا أو جادلوا صاحبَ ملة من الملل، أو مذهب من المذاهب الضالّة ونحو ذلك، فربما غلبَ أو ربما كان أقوى وكان صاحب بهرجةٍ ومغالطةٍ فوقع الافتتانُ في الناس، الله -جل وعلا- في هذه السورة بيّن أن الفتنة تقع إذا لم يكنِ الحوارُ من عالم وبالتي هي أحسن، فقال -جل وعلا-: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾(1)، إلى أن قال -جل وعلا-: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ

(١) (العنكبوت: ٤٦ ـ ٤٧).

بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾[1]، فذَكَرَ -جل وعلا- النهيَ عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، لكن ممن؟ ممن هو صاحبُ حكمة وبصرٍ، وعلمٍ بالقرآن فقال: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[2]، ولهذا مَنْ لم يعلمِ القرآنَ، وحججَ القرآنِ، وبيناتِ القرآن، والبراهين التي في القرآن، وكيف جاء في القرآن الحوارُ مع الملحد، ومع المتجبِّر، ومع الطاغوتِ، ومع الناس بجميع أصنافِهم، مَنْ لم يعلمْ ذلك فإنه لا يصلُح للحوار، فليس كل أحدٍ يحاورُ برأيه وبفكره، وإنَّما الحوارُ للعلماء الربانيين، الحوارُ أو المجادلة كما في القرآن، هذه إنما هي لأهل العلم الذين يعلمونَ حدودَ ما أنزلَ اللهُ على رسوله ﷺ.

(١) (العنكبوت: ٤٦).

(٢) (العنكبوت: ٤٩).

إذن تقع الفتنةُ بالمجادلة، إذنْ لابدّ أن يكون المرءُ في هذه الحال معتزًّا بدينه، وأنْ يعلمَ أن القرآنَ هو الحقُّ، وأنه من كان في صدره فهو الذي على الحقِّ؛ لأن القرآنَ حجة ماضية على الجميع، ولهذا إذا كان المرءُ لا يعلم بعض الحجج فإنه يقول كما قال الله -جل وعلا-: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[1]، وهذه المجادلةُ الإجماليةُ، أمّا التفصيلُ فعند مَنْ يعلم القرآنَ ويعلمُ الشريعةَ.

ومن الفتن التي ذكرتْ أيضاً في هذه السورة أن يجعل الله -جل وعلا- الحياة جميلة بلهوها ولعبها وما فيها من الملذّات حتى ينسى المرءُ الآخرةَ، قال -جل وعلا- في آخر السورة: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞ﴾[2]،

(١) (العنكبوت: ٤٦).

(٢) (العنكبوت: ٦٤).

لأن الكثيرين من الناس افتتنوا بالحياة باللهو واللعب، ويظنُّ أنها ستمتدُّ بهم، ولا يعلمونَ حقيقةَ الحياة، قال -جل وعلا- بعدها: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[1]، (الحيوانُ) هذه صيغة مبالغةٍ من الحياة، يعني الدار الآخرة يعني الجنة، والنار هي ذات الحياة الباقية الكاملة، فمَنْ أراد قِمَّةَ النعيم، وكمالَ النعيمِ والتلذّذ فهو في الجنة في الآخرة، ومَنْ أراد الهربَ من المؤذياتِ، فالمؤذياتُ كلها في النار والذي يريد الهربَ يهرب من النار، ولهذا قالتْ طائفة من العلماء -منهم ابنُ الجوزيّ-: ذَكَرَ اللهُ -جل وعلا- في القرآن أنواعَ نعيمِ الدنيا لتنظرَ إلى نعيم الدنيا ولتتذكر به نعيمَ الآخرة، فكلُّ مثال في الدنيا للنعيمِ أو للتلذّذ هو حجةٌ عليك في تذكُّرك نعيمَ الجنة، وكلُّ مثال

(١) (العنكبوت: ٦٤).

في الدنيا لأنواع المؤذيات ولو كانت حشرةً صغيرة، أو كان حَرًّا يسيراً فهو مثال يذكِّرُك اللهُ -جل وعلا- به لِمَا يكون في الآخرة من النَّكال، ومن العذاب، ومن الحِرْمانِ.

* * *

فتنة اللهو واللعب:

فمَنْ أراد حقيقةَ الحياة والسعادة فليبحثْ عن السعادة الأبديَّة، والحياةُ الدنيا هذه لهوٌ ولعب، قال الله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾[1]، وما افتتنَ الناسُ الآن إلا باللهو واللعب في هذه الحياة الدنيا.

لماذا قَسَتِ القلوبُ؟ لأجل أنَّ الناسَ أقبلوا على اللهو واللعب.

لماذا أعرضوا عن الآخرة؟ لأنهم أقبلوا على اللهو واللعب.

لماذا قلَّ نصيبُهم من القرآن؟ لأنهم أقبلوا على اللهو واللعب.

والجادّ العاقلُ هو الذي ينظرُ إلى قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[2]، من الفتن التي ذُكرتْ في هذه السورة وذُكِرَ فيها المخرجُ من الفتنة،

(١) (العنكبوت: ٦٤).

(٢) (العنكبوت: ٦٤)

الفتنةُ بالأمْنِ، أمْنِ الحرم، أمْنِ ما حولَه، يحصل الأمْنُ سنوات وسنوات وسنوات، فيغترُّ الناسُ بأننا لن يصيبَنا ما أصابَ غيرَنا.

الزلازِلُ تصيبُ الآخرين، أمّا أهلُ الحَرَمِ فلا تصيبهم.

الموبقاتُ وضيقُ المعيشةِ يصيب الآخرين، النكدُ يصيبُ الآخرينَ أمَّا أهلُ الحَرَم فلا يصيبهم شيءٌ يقولون: نحن أبناء الله وأحِبَّاؤه، أو نحن الخاصّة، أو يقولون أو يقولون، قال -جل وعلا- في بيان هذه الفتنة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾[1]، هذا لفتُ النظرِ إلى هذا النوع من الإنْعام من الله -جل وعلا- وألَّا يكونَ هذا الإنعامُ سبباً للافتتان بهذه النعمة، وهذا الرخاء الذي جعل الله أهلَ مكة فيه زمنَ النبوة، وما شاء الله من الأزمان

(١) (العنكبوت: ٦٧).

بعـده، قال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾(١)، ما الغرضُ من هذا؟ ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾(٢)، بعدَ هـذا الإنعـام يؤمنون بالباطل بالشِّرك والكفر، وإنكار رسالة محمد ﷺ وإطاعة الشياطين، أو بما هو دون ذلك من المعاصي والموبقات والآثام: ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾(٣)، مَنِ الذي أنعم؟ اللهُ -جلّ وعلا- ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾(٤).

إذن مِنَ الافتتان الـذي قد يصيبُ اللهُ به بعضَ العباد كما ذكر في هذه السورة أن يظنَّ العبدُ أنَّ البلاء إنما هو للآخَرين، وأمّا هو فلن يُبتلى، فَنَقصُ الرزقِ يكون لفلان من الناس، أمَّا هو فلا.

(١) (العنكبوت: ٦٧). (٢) (العنكبوت: ٦٧).

(٣) (العنكبوت: ٦٧). (٤) (النحل: ٥٣).

الإصابةُ بالأمراض الشديدة -أجارنا الله وإيَّاكم منها- إنما يُصابُ به الآخرونَ أمّا هو فصاحبُ صحَّة وعافية، السكتةُ القلبية، الغضبُ، إلى آخره.. يصابُ به الآخرون أمَّا هو فلا يتذكر ولا يتّعظُ، قال -جل وعلا- في بيان هذا المثال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾[1].

* * *

(١) (العنكبوت: ٦٧).

العلاج في الخروج من الفتن:

هذه أمثلةٌ من أنواع الافتتانِ وأنواع البلاء، وما في هذه السُّورة مما يتَّصل بهذا الموضوع، ثم يتعانقُ في هذه السورة الابتداءُ مع الختامِ فيدلك على قول مَنْ قال من أهل العلم: إن موضوعَ السورة يتعانقُ فيه البدايةُ مع النهايةِ، فقال -جل وعلا- في بدايتها: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[1]، ما المخرجُ في جميع هذه الحالات؟ الجوابُ في آخر السُّورة وفي آخر آيةٍ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾[2]، أي: لنبصِّرَنَّهم سُبُلَنا، أي: طرقَنا في الدنيا والآخرة. وهم الذين يعملون بما يعلمون فيهديهُمُ اللهُ لما لا يعلمونَ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[3].

* * *

(١) (العنكبوت: ٢ ـ ٣).

(٢) (العنكبوت: ٦٩). (٣) (العنكبوت: ٦٩).

الخاتمة

موضوعُ مقاصد السُّور وأثرُ ذلك في التفسير له شعبٌ من جهة التنظير، وله أيضاً شعبٌ من جهة التطبيق.

وإذا تأملتَ ما ذكرتُه في هذين المثالين في سورة الفاتحة وسورة العنكبوت يكون لك به نظرةٌ ورؤيةٌ إلى ما يذكره العلماءُ في موضوعات السُّوَر وما تشتمل عليه، ففَهْم آيات سُورة العنكبوتِ الآن تقرؤها ربّما يكونُ لك فيها تدبرٌ آخرُ، يكون تأثُّرك بالسورة وبالنظر فيها تأثُّراً آخرَ ونظراً آخرَ، ترى الآيات غير ما كنت تقرأ سابقاً.

لماذا؟ لأنه اتّصل عندك الموضوعُ وفهمتَ هذه الآية، ولماذا أتى بقصة النبيّ فلان؟ ولماذا أتى بقصة النبيّ الآخر -عليهم جميعاً الصلاة السلام- إلى آخر ما هنالك.

إذن هذا الموضوعُ وهو موضوعُ مقاصد السُّور من العلم النادر العزيز، لكنه مهم لكلِّ طالبِ علمِ التفسير بقدر ما ذكرنا، وهو أن ينصَّ أحدُ العلماءِ على المقصدِ والموضوع، وأن يكونَ ظاهراً في دور آياتِ السورة عليه.

أسألُ الله -جل وعلا- أن يباركَ لي ولكم فيما سَمِعْنا، وأنْ يجعَلَنا من أهل القرآن الذين هم أهلُه وخاصَّته، وأن يزيدَنا منه علماً، وأن يذكّرنا منه ما نَسينا، وأن يجعلَنا من المُحِلِّين لِحَلاله، المحرِّمين لحَرامه، المعتقدينَ لما فيه من الغيب إنه -سبحانه- جوادٌ كريم. وصلى الله وسلَّمَ على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

* * *

المحتوى